متاهات التبسيط و التنميط (الحلقة الثالثة)

صلاح المختار

دائماً اكره الخطأ ،لكن لا تكره المخطئ

الإمام الشافعي

لفت نظر

هذه الدراسة كتبت وأرسلت لجريدة القدس العربي التي نشرت مقال السيد عبد الحليم قنديل رداً على طروحاته ، لكن الصحيفة لم تنشر الرد وانتظرت أكثر من ثلاثة أسابيع أملاً نشره لكنها مع الأسف لم تنشره والرد بالنسبة للصحافة الحرة حق مشروع في الإعلام الذي يؤمن حقاً بحرية الرأي ويمارسها فعلاً لا قولاً أو بصورة انتقائية ، لذلك اقتضى نشر هذا التوضيح .

صلاح المختار

وينتقل إلى تنميط آخر خاطئ عندما يقول : (ولم يكن من باب المصادفات ، أن أول قرارات الاحتلال الأمريكي كان تسريح وحل الجيش العراقي ، وإلغاء مبدأ التجنيد الوطني الإلزامي ، وكانت النتيجة هي تحطيم العمود الفقري لدولة كان اسمها العراق) ! ، ثم يضيف (كان العراق دائماً تعبيراً جغرافياً لا سياسياً ، ولم يصبح دولة بصورتها التي كانت ، إلا قبل أقل من مئة سنة ، وفي سياق اتفاق « سايكس . بيكو » ومضاعفاته !! ، ما المعنى الفعلي لعبارة أن العراق لم يكن تعبيرا سياسيا ؟ ، وهل حقاً أن العراق (تعبير جغرافي وليس سياسياً ووليد ما قبل قرن) ؟ ، لو طرحنا التساؤلات التالية لاقتنعنا أنها أطروحة خاطئة وخطيرة : ماذا إذن عن الحقيقة التاريخية الأبرز والأقدم في التاريخ البشري

المعروف ، والتي يعترف بها العالم كله ويجدها أي باحث في أي انسكلوبيديا تحت أسماء : وادي الرافدين ، العراق ، وميسوبوتاميا سيجد هذا الباحث أن أول حضارة إنسانية معروفة نشأت في العراق وهي الحضارة السومرية ؟ ، ولم هذا الإصرار العجيب على تجريد العراق من تاريخيته وهي في مقدمة أولويات ، محاولة لم تجرأ عليها حتى الصهيونية مباشرة لأنها اضطرت أصلاً لتضمين العهد القديم من الكتاب المقدس اعترافات متتالية بقدم العراق وأصالته وحضارته وعظمته الأسطورية والتي كانت وراء (الأسر البابلي) الشهير والذي تسميه الصهيونية بـ (السبي البابلي) بينما يقوم مثقف عربي ، و(ناصري) أيضاً بذلك بكل أريحية وبكل جرأة !؟ ، هل قال ذلك جهلاً بتاريخ العراق أم أنه يتعمد التجاهل بدليل أنه يتحدث عن نزعة العنف العراقية في التاريخ ؟ ، أم أنه يتلاعب باللغة ليصل إلى هدف نفي وجود عراق أصيل ؟ عندما كنت اقرأ للمرحوم محمد حسنين هيكل أجد نفسي أمام عقدة بارزة لم يتمكن من إخفاءها وربما كان يريد إظهارها وكانت تتحكم به اسمها (عقدة العراق) ، فهو كان يتعمد إنكار أو تجاهل واحدة من أبرز حقائق التاريخ والجغرافيا ، وهي ، أن العراق شهد أقدم الحضارات البشرية وهي الحضارة السومرية ثم تعاقبت الحضارات أو تزامنت فيه : الحضارة البابلية التي كانت أُم العالم القديم لدرجة أن بابل تحولت إلى ظاهرة سياسية معاصرة تكاد تنفرد بتحريك قوى ودول الآن خصوصا في العقود الأخيرة تحت فكرة (الثأر من بابل) وما حصل بعد غزو العراق يقدم الصورة الواضحة لذلك ، وجاءت الحضارة الأشورية والحضارة العباسية وبينها حضارات فرعية ، وتلك ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارات الرئيسة ، فلم تشهد مصر مثلاً إلا حضارة واحدة هي الحضارة المصرية الفرعونية ، وهذا ما كان السيد هيكل يتجاهله بتعمد واضح جداً عندما يتناول الحضارات وكأن تلك الحضارات المتعاقبة غير موجودة أو يتمنى لو لم توجد ! ، ومقابل ذلك وهو ما يثير الشك العميق بهويته الحقيقية يمجد حضارة فارس والتي هي استنساخ من حضارات العراق ! ، ويأتي السيد

قنديل ليسير على خطى هيكل بلا تردد، ! ولكي نطري ذاكرة من يتنكر لوجود عراق عريق نذكّر بأهم الحقائق المتصلة بهذه القضية وهي أن الشعب الساكن بين النهرين منذ أكثر من ١٠ آلاف عام لم يتغير ويهجر وبقي هو بذاته واحتوى هجرات أقوام أتت من الشرق ومن الشمال والشرق والجنوب ودمجها في بنيته الحضارية واكتسبت هويته العراقية العربية ، ولهذا كيف يمكن فصل التاريخ عن جغرافية العراق التي عاش فيها العراقيون بجعله حدثاً عصرياً عمره حوالي مائة عام كما قال السيد قنديل ؟ ، وفيما يلي بعض انجازات حضارات العراق :

- اختراع العجلة والصفر ووضع أول لغة وهي المسمارية وتأسيس علم الفلك والهندسة والطب واللاهوت ، وتميزه عن كل العالم الذي شهد حضارات بتعدد حضاراته وتنوعها مع بقاء نفس الشعب الذي يقيمها ....الخ .

ومن المفارقات المحزنة أن هيكل العربي وتلميذه قنديل (الناصري) ينكران ما يعترف به الهنود الذين وضعوا في كتب الدراسة الثانوية انجازات الحضارة العراقية ، وسموها باسم العراق أيضاً ، وعدّوها الأقدم في التاريخ رغم أن للهنود حضارة عريقة قديمة كحضارتنا العربية المصرية ! ، ومسلة حمورابي شاهد آخر على تاريخية المكان الجغرافي الذي جرده السيد قنديل من تاريخيته وعده مجرد جغرافية ! ، والمسلة هي تاريخ مشع حتى الآن ، فهي أول قانون مكتوب في التاريخ البشري على حجر ما زالت موجودة حتى الآن رغم مرور آلاف السنين ، كما أن امبريالية الآشوريين – أي توسعيتهم – كانت شاهداً تركت آثارها في كل مكان وصلت إليه جيوشهم خارج العراق ، أو وادي الرافدين أو الميسوبوتاميا كما كانت تسمى ، فأصبح العراق الآشوري والبابلي سيد ما يسمى الشرق الأوسط ، كما كان العراق السومري سيد عملية ابتكار أول حضارة معروفة ، وجاءت حضارة العباسيين والتي أصبح فيها العراق مركز العالم القديم كما هو حال أمريكا اليوم حيث كان آلاف الشباب يأتون من كل

القارات للدراسة في العراق وازدهر فيه الطب والعلوم والحياة الاجتماعية والثقافة ...الخ ، فكيف يكون العراق تعبير جغرافي فحسب طامراً كل هذه الإشعاعات التاريخية الفذة ؟ ، هل هذا التواتر الحضاري الأصيل تعبيرات جغرافية فقط أم أنها طوعت الجغرافية للسياسة فصار العراق يكتب تاريخ العالم برمته ولعدة قرون بعد أن أسس إمبراطوريات امتدت من آسيا إلى أوربا وأفريقيا واعترف العالم بان العراق كان مركز العالم المنير ؟ ، هل هذا تعبير جغرافي ؟ ، أم أن السياسة العراقية لم تكتفي بتطويع الجغرافية فقط بل سخرتها لخدمة سياسة عراق ناهض احتل موقع الشمعة المنيرة للعالم في العهود القديمة والعصور الوسطى ؟ ، ثم استأنف دوره الحضاري في العصر الحديث بنهضة السبعينيات والتي اغتيلت بما فرض على العراق من حروب انتهت بغزوه والذي كان في أهم تعبيراته قرار غربي صهيوني باغتيال نهضة حضارية عربية حديثة أعطت أولى ثمراتها ، وإذا لم تكن تلك هي الطبيعة التاريخية للعراق فما معنى التاريخ لدى السيد قنديل ؟ ، ومن المفارقات التي لم ينتبه إليها السيد قنديل أن هذا الوصف الخاطئ للعراق يمكن أن ينطبق على مصر فحضارة مصر حضارة ساكنة ولم تكن حضارة امبريالية كالحضارات العراقية ، أي أنها تعبير جغرافي ساكن ، فمصر لم تتوسع كثيراً مثلما توسع العراق وبقيت غالباً في حالة دفاعية وضمن حدود مصر تقريباً قدر تعلق الأمر بالحضارة الفرعونية ، وأيضاً لأسباب منطقية ، بينما الحضارة العراقية توسعت في أغلب مراحلها في فترة ما قبل الميلاد وبعده في زمن العباسيين ، وهنا ننبه إلى أن هذه الحركة الامبريالية كانت مصدر التوسع الحضاري العراقي فهي إذاً التاريخ بعينه وبقلبه وجوهره ، فالذي يتوسع يكتب التاريخ بعد أن يؤسس وقائع راسخة ، وبناء عليه فان التعبير الجغرافي لكيان ، حسب وصفه ، لا السياسي ينطبق على مصر أكثر مما ينطبق على العراق رغم إيماننا بأن حضارة مصر شقيقة للحضارات العراقية لأنها نتاج عبقرية واحدة هي العبقرية العربية التي عبرت عن نفسها بأشكال مختلفة تبعا للمكان والزمان وأحكامهما

. الخطر كل الخطر في هذه الأطروحة يكمن في أن من نحتها حديثاً هو الغرب وبريطانيا بالذات ومنها اقتبست الصهيونية وأمريكا وبقية أوربا فروّجوا فكرة حداثة العراق وأنه كيان مصطنع عمره مائة عام وولد نتيجة سايكس بيكو ! ، وهذه الأطروحة تحولت قبل وبعد غزو العراق إلى غطاء للحط من شأن العراق وإنكار أصالته والدعوة إلى تقسيمه وتدمير هويته العربية ، فما دام كيانا (حديثاً ومصطنعاً) كما تردد الأطروحات الغربية والصهيونية والإيرانية فمن الممكن إعادة تشكيله بما في ذلك تقسيمه وإلغاء كيانه ! ، هنا تكمن خطورة اعتبار العراق مجرد تعبير جغرافي فقط كما قال السيد قنديل متأثراً على الأرجح بكتابات هيكل المولع بفارس ، فهل كانت في باله هذه النتيجة التي وضعته في قارب واحد مع منظري الغرب الاستعماري والصهيونية وغلاة النخب الفارسية ؟ ، وتواصلاً مع منحى إنكار هوية العراق التاريخية والحضارية نجد السيد قنديل يتجاهل بشكل غريب مقومات الدولة العراقية الأساسية ويختار منها أحد مؤسساتها الفرعية وهو الجيش فيقول (أن أول قرارات الاحتلال الأمريكي كان تسريح وحل الجيش العراقي ، وإلغاء مبدأ التجنيد الوطني الإلزامي ، وكانت النتيجة هي تحطيم العمود الفقري لدولة كان اسمها العراق) ! ، هذه الفقرة فيها إشارات واضحة تحسب وبغض النظر عن نوايا السيد قنديل على أنها تكملة للفقرات السابقة الهادفة إلى إنكار وجود عراق قديم وعريق وأصيل .

إنكار تاريخية العراق يكمل مخاطرها باعتبار الجيش العمود الفقري لدولة لا تقوم إلا بوجود الجيش ، أي أن وجود العراق بدون القوة ينتهي وان الدولة العراقية تقوم بالقوة وليس بالاختيار الشعبي التلقائي المستمر عبر آلاف السنيين ! ، ولهذا لابد من تأكيد أن العمود الفقري للدولة العراقية ليس الجيش بل تكوين النسيج الاجتماعي العراقي ، أي الهوية الوطنية العراقية ، والذي وجد تعبيره العملي في التعددية القبلية والثقافية والدينية والانصهار الإثني وكل ذلك وجد تعبيراته العملية في الجيش

والأحزاب ومؤسسات الدولة العريقة ، ففي النهاية لولا وجود الهوية العراقية أصلاً لما وجد جيش ولما أسست دول عراقية متعاقبة عبر آلاف السنين ، بتعبير آخر : المجتمع المتماسك بلحمته القوية هو عماد الدولة وعمودها الفقري وليس الجيش كما ادعى السيد قنديل ليصل إلى إكمال دعم أطروحته وهي وقتية وهشاشة الكيان العراقي .

ومما يلفت النظر أن السيد قنديل أراد إثبات أطروحته التي تنكر وجود عراق وكيان عراقي متجذر من خلال تعبيراته التي استخدمها وهي مثيرة للانتباه بشدة مثل (نعي العراق) ، و(لا تاريخية العراق) أو (دولة كان اسمها العراق) فهو في التعبير الأخير يؤكد بصورة مسبقة أن العراق كان ولم يعد موجوداً رغم أنه مازال موجوداً ويقاوم الاحتلال بعد مرور ١٤ عاما! ، فهل من الصحيح نفي وجود العراق والادعاء بانتهائه مع أنه موجود بدليل أن أمريكا التي هزمت وانسحبت مضطرة في عام ٢٠١١ نتيجة شراسة وفاعلية المقاومة العراقية وسلمت العراق إلى إسرائيل الشرقية كي تكمل ما بدأته هي وعجزت عن إكماله ؟ ، أن تعمد حصر وجود الدولة العراقية في وجود الجيش وتأكيد الكاتب على انتهاء العراق بعد حل الجيش أطروحة واضحة الهدف تماماً وهو قبول ما يجري من انهيارات مصطنعة واعتبارها حالة طبيعية ستستمر ويجب أن تستمر ما دام العراق كيانا طارئا عماده الجيش والجيش انتهى فيجب أن ينتهي الكيان الذي قام فوقه !!! ، وهي كذلك أطروحة تناقض الواقع العراقي الحالي فالمقاومة انطلقت منذ اليوم الأول للغزو وكان الجيش العراقي الوطني هو عمودها الفقري رغم حله ومازال حتى هذه اللحظة ولكن مرة ثانية ، مم تشكل الجيش ؟ ، فلو لم يكن النسيج الاجتماعي العراقي عضوياً – أي أصيلاً وتاريخياً – لما قام جيش متماسك وقوي يعترف الكاتب بأنه انتصر على إسرائيل الشرقية في حرب دامت ثمانية أعوام رغم الدعم الغربي والصهيوني لنظام خميني في تلك الحرب (هل يوجد دليل أقوى من إيران جيت ؟) وهي مثال واحد على الدعم الغربي لخميني والوقوف ضد

العراق ، ولو أن العراق كيان عماده الجيش لتقسم مباشرة بعد حل الجيش كما حدث مثلاً ليوغسلافيا وجيكوسلوفاكيا لأنهما كيانان غير عضويين وإنما ربطا قسراً ودون اندماجهما العضوي والذي يحتاج على الأقل لعدة قرون بينما عضوية العراق نشأت عن تفاعلات بين البشر فيه امتدت إلى أكثر من ١٠ آلاف عام ..... يتبع

almukhtar44@gmail.com .

1-4-2017